مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 10 عدد 2 ديسمبر 2019 ص.ص 306-334
الحجاج المغاربة والصراعات المذهبية

الحجاج المغاربة والصراعات المذهبية على طريق الحج خلال العصر الوسيط

تواتية بودالية
جامعة معسكر، boudalia.touatia@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 31/ 07/ 2019؛ تاريخ القبول: 01/ 11/ 2019

Maghreb Pilgrims and Sectarian Conflicts on the Pilgrimage Route In the middle Ages

Abstract:

He pilgrimage routes influenced the Maghreb pilgrims of middle ages in many ways and also it was controlled by factors influenced in short and long term. These factors change over time because the political and the sectarian conditions. The most important factors which affect the pilgrims are the religious calls and the sectarian conflicts that has offered the pilgrimage to Maghreb because of the interruption of the political and sectarian in rest.

This topic addresses the advocacy activity that the pilgrimage (hadj) has performed in the Middle Ages, because of the diversity of geographical spaces that reach the Hijaz,

المؤلف المراسل: تواتية بودالية
boudalia.touatia@univ-mascara.dz

we will focus on the pilgrimage routes of Maghreb because these methods of diversity are not representative of religious activity and sectarian differences. Detect sectarian conflicts as they become a path.

Keywords: advocacy activity; pilgrim routes; spreading Islam; sectarian conflict; political propaganda.

الملخص:

أثرت مسالك الحج على الحجاج المغاربة في العصر الوسيط من عدة جوانب، وتحكمت فيها عوامل أثرت على المدى القصير والطويل سواء سلبا أو إيجابا ذهابا وإيابا، وهذه العوامل تتغير على مر الزمن بسبب الظروف السياسية والمذهبية. ومن أبرز هذه العوامل التي تؤثر في حركة الحجيج عبر مسارها الدعوات الدينية والصراعات المذهبية التي طالما عرضت فريضة الحج عند المغاربة إلى الانقطاع والمنع بسبب الاضطرابات السياسية والمذهبية على طريق الحج.

يتناول موضوع هذا البحث النّشاط الدّعوي المذهبي التي أدته طرق الحج في العصر الوسيط، ونظرا لتشعب الفضاءات الجغرافية الواصلة إلى الحجاز سنركز على طرق الحج لدى الحجاج المغاربة، لما تتصف به هذه الطرق من التّنوع في تمثيل النّشاط الدّعوي والاختلاف المذهبي، وما كان لهذه الطرق من أثر في الكشف عن الصراع المذهبي؛ حيث غدت مسالك

وطرق الحج مجالات متنوعة أفرزت كل أشكال الدعاوى المذهبية على مستوى الأفراد والجماعات.

الكلمات المفتاحية: النّشاط الدّعوي؛ طرق الحج؛ نشر الإسلام؛ الصراع المذهبي، الدعاية السياسية

مقدمة:

تعتبر الرحلة الحجية من أكثر المواضيع التي برزت في المصادر الوسيطية وفي سياقات مخصوصة، غير أنّ موسم الحج ومسالكه كانت صعبة وشاقة. وكانت الفجوة ومسافة التّوتر تنشأ أولا بين الحجاج المغاربة، وثانيا بين المسلك أي طريق الحج، وثالثا بين المفارقة المذهبية على طريق الحج سواء بالنسبة للسلطة أو القبيلة.

وتطرح إشكالية المضايقات المذهبية التي يتعرض لها الحجاج المغاربة بحدة أكثر، وذلك لتفاوت الانتماءات العرقية عبر المسالك الحجية. وهي ظاهر موقفية ترتبط بموسم الحج، وغير معلن عنها في المصادر التاريخية وتنزع نحو الاختصار والإضمار، وكامنة في الأحداث الواقعية من الجانب السياسي والعسكري.

وانطلاقا من معالجة متون المصادر الجغرافية وكتب الرحلة الحجازية وما تجمع بين مظانها من وصف الرحلات الحجية، فإننا

نلاحظ تلك العناية التي خصها هؤلاء المصنفون بالمسالك الحجية والمواقع الجغرافية التي يمر منها الحاج ليصل إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج.ومما لا شك فيه؛ فإنّ أغلب الحجاج يصلون إلى مبتغاهم إلا بعد مشقة، نظرا لهيمنة المضايقات المذهبية عبر المسالك، مما سيؤثر سلبا أو إيجابا ورواحا وذهابا على النّشاط الدّعوي والمذهبي للحجاج المغاربة.

وتظهر فعالية الأداء الدّعوي الذي أدته طرق الحج عبر تاريخ العصر الوسيط على المستوى المذهبي؛ حيث ساهمت الاختلافات المذهبية في التأثير على الحجاج المغاربة. وهذا ما سنحاول رصده من خلال الوقوف على أثر النّشاط الدّعوي المتنوع للحجاج المغاربة في المناطق التي ساروا فيها، وذلك بفحص موقف السلطة من الصراع المذهبي بمختلف أشكاله، ومظاهر الصّراع بين المسلمين وغيرهم من الطوائف.أما المواقف من مخاطر الصراع المذهبي فستتخذ عدة غايات سياسية، وعسكرية، ودينية لتؤمن استمرار الحج ومسيرته عبر المسالك.

وبالرغم من اشتغال الدراسة على المضايقات المذهبية على طريق الحج، فإنّنا سنستبعد كل ما يتعلق بالصراع مع القبائل الهلالية وقطاع الطرق والحرابة، لأنّ المجال سيتسع ويفقد الموضوع قيمته المذهبية. لذا

سنقتصر فقد على النّصوص ذات التّوجه المذهبي سواء بالنسبة للحجاج أو في المناطق التي ساورا عليها، وذلك بالوقوف عند عينات تكشف وتميط اللّثام عن الصراع المذهبي بين الحجاج المغاربة وبين الطرف الآخر المتمركز على عدة مستويات: السلطة، الجماعة(القبيلة)، وعلى المستوى الفردي الممثل في الدعوات الفردية للحجاج.

وتتمحور إشكالية الموضوع فيما يلي: ما هو موقف الخلافة المشرقية من تعدد المذاهب لدى الحجاج المغاربة؟ كيف أثرت مسالك الحج على مسير الحجاج المغاربة؟ ما هي الأساليب الإصلاحية للحد من الصراع المذهبي، ولمواجهة الخطر على مسالك الحج؟

1- خطر السلطة والقبيلة على الحجاج المغاربة:

إذا كان الحج أمرا دينيا مفروضا ومحمودا لدى المسلمين المغاربة، فإنّ طريقه مهلكة للنّفس والمال بسبب المضايقات المذهبية، التي تحكمت فيها التّحولات السياسية والدينية عبر طريق الحج. فلا غرابة، إنْ قلنا أنّ للسلطات السياسية والقبائل على اختلاف مذاهبهم باع طويل في تغذية الخطر على المسالك كما سنذكر:

أ- موقف الخلافة العباسية من إباضية المغرب في موسم الحج:

لقد أصبحت مسالك الحج أمام أزمة الاختلاف المذهبي تعج بالخطر الدّيني والمذهبي، وستمثل السّلطة السياسية محور الضّغط على التّعددية المذهبية المخالفة لأهل السّنة، وتتخذ الدول في المغرب الإسلامي والمشرق كل الاستعدادات لمواجهة الخطر الدّيني وإنْ كانت هذه الفئات تبغي أداء فريضة الحج، وبخاصة أهل المغرب الذين يكثرون من الخروج للحج في كل عام(المالكي، أحمد: 1994، ج1، 480). وفي مقابل ذلك، يكون الوجود الأمن لمختلف المذاهب داخل الحرم المكي، موطن العديد من علماء المذاهب على اختلافهم، ومركز الدّعوات التي تسمح باللّقاء مع زعماء المذاهب والاجتماع بهم في مكة للنّظر في قضايا دينهم، ومناقشة ما يستجد لديهم من مسائل فقهية معقدة (الشماخي، أحمد، 2009:ج1،130-131).

وبذلك يرتكز موقف السلطة السياسية حول تحقيق الأمن الداخلي والخارجي، وتتحول إلى المدافع عن نّظامها السياسي وسيادتها الدّينية. وهذا لا يعني استبعاد حماية السّلطة السياسية عن الحماية الدّينية للحجاج، وإنّما يعني رقابة الدولة المستمرة على الدّين والخطر الذي يتربص به من الاتجاهات المذهبية الأخرى، لأنّ هذه السياسة ستشكل محركا فعالاً للحماية الدائمة للحجاج. بيد أنّ السلطات العباسية، كانت تأخذ أشدة الاحتياط والحذر من المغرب، لاسيما إبان موسم الحج لكثرة

الوافدين من جبل نفوسة ببلاد المغرب أصحاب المذهب الإباضي(الباروني، سليمان،2005: 259 / علي الشريف، 1999 : 187).

وعلى نقيض ذلك، وبسبب الانقلابات والاضطرابات السياسية وبخاصة في العصر العباسي الذي شكل حجر الزواية في انتشار المذاهب مشرقاً ومغرباً، وصارت محل خطر يهدد خلافتها. وكان الحج فرصة للانتقاض على المعادين لمذهب الدولة؛ فهذا الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (171-208 هـ/ 787-823م)(ينظر الشرح رقم1) يصفه الشماخي عندما عزم أداء فريضة الحج بقوله: « ولما رأى الإمام من سائر أتباع دولته كمال الانقياد، واستيلاء الأمن والعافية على البلاد ....حن متشوقا إلى زيارة ضريح أفضل الخلق على الإطلاق نور الوجود ونبراس اليوم المشهود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وإلى تلك الدّيار المقدسة الطّاهرة، وقد علم من نفسه أنّه ممن تعين في حقه القيام بأداء فريضة الحج»(الشماخي، أحمد، 1995: 66).

ففي الوقت الذي صرح برغبته في الحج منعه العلماء خوفاً على حياته وعلى مصير الدولة نفسها، ومن انقضاض العباسيين عليه في الحج. ومن ذلك قال الباروني: « لما فشا خبر توجه الإمام إلى الحج

اجتمع العلماء وأصحاب الرأي من نفوسة وغيرهم، واتفقوا على منعه والتّعرض له خوفاً من غدر ملوك الشرق(بني العباس) به ومن قبضتهم عليه لأنّ الملك في تلك الأقطار لهم لأنهم كانوا منهم في رعب شديد» (الباروني، سليمان،2005: 67). وتفصح هذه الحادثة عن تغلغل الصراع المذهبي حتى في بيت الله الحرام، وانعكاسها السلبي لتحقيق عقيدة التوحيد بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم.

إنّ التّواصل بين زعماء المذهب بالمغرب مع بلاد الحجاز حتمية فرضتها الظروف السياسية والعقادية، ومن الشّواهد التي تقر بالدّعوة السياسية الاعتراف بإمام تيهرت، عندما عارض ابن فندين(ينظر الشرح رقم2) إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم(الباروني، سليمان،2005: 67). ونتيجة الصراع حول أحقيته الشرعية في الإمامة، إتفق أهل الرأي على استشارة رؤساء المذهب بالمشرق،« وكلف أهل المغرب لحمل ما كتبوا رسولين أمنين عند الجميع»(الشماخي، أحمد، 1995: 52). لعرضه على رؤساء المذهب القادمين من البصرة للحج، ولما وصل الرسل مصر « قصدوا العلامة أبا المعروف شعيبا ومن معه وأخبروهم بما كان من وفاة الإمام عبد الرحمن ومبايعة عبد الوهاب، وخروج ابن فندين وإدعائه الشرط بالإمامة وغير ذلك مما وقع كله، وتوجهوا إلى مكة المكرمة وكان بها يومئذ من معتبري علماء الإباضية

ورجالهم ذلك العلامة الجليل المحدث المشهود له بالورع والفتوى والمرجع في الرأي عند المشارقة كافة أبو عمرو الربيع بن حبيب صاحب كتاب المسند في الحديث، والعلامة أبو غسان مخلد بن معمر الغساني، والعلامة وائل بن أيوب وغيرهم من رجال العلم والدين؛ فدفعوا لهم الكتب وبينوا لهم مشافهه ما استفهموه وانتظروا الجواب»(الباروني، سليمان،2005: 52).

ولما عادت الرسل من المشرق بكتاب ابن الربيع وفيه أمر بصحة ولاية إمامهم وبطلان الإدعاء، فرح المسلمون ومما تضمنه الكتاب: « إنّ الإمامة تامة والشرط باطل، وأنّ القول قوله، وأنّه مصيب..» (الشماخي، أحمد، 1995: 54).

ومع تصاعد الخلاف المذهبي لحق الضّرر بالسّلطة الحاكمة وأفرادها من الأئمة الإباضية؛ حيث كانوا مهددين من طرف السلطات العباسية، فقد كان الإمام أبو اليقظان (261-281هـ/ 875-894م) (ينظر الشرح رقم3) ضحية هذه الخلافات عندما خرج لأداء مناسك الحج على حد تعبير ابن الصغير الذي يصف لنا معانات الإمام أبو يقظان بقوله:« أذن له في الحج فيخرج مع قافلة النّاس، فلما طاف وسعى كشفته رسل بني العباس، إذ قدموا معه من عندهم، وقيل لهم أنّ ابن

مقدم الشراة قد قدم من المغرب من عند أبيه يرتاد البلاد ويرسل رسله في كل الأفاق إلى كل من كان على رأيهم ومذهبهم ليأخذوا إلى أنفسهم إلى أن يأتيه والده من المغرب » (ابن الصغير المالكي، 1986: 55-56). فاعتقلوه بتهمة التآمر مع أبيه ضد الخلافة العباسية، ولم يطلق سراحه إلا بعد مدة، ولما عاد إلى تيهرت وجد أباه قد مات حسرة على فراقه، فيما ورد عند ابن الصغير بقوله: « فلما علم أنّه رفع على بغداد اشتد حزنه عليه وطال غمه به فلم يزل مهموما محزونا إلى أن وافته منيته وابنه محبوس ببغداد»(ابن الصغير المالكي، 1986: 95). والظاهر من تعامل العباسيين مع الأطراف المعادية بمنطق القوة في البلاد الخاضعة لسيادتها سيساهم في تغذية الفجوة بين المذاهب، وهنا يكون الحج مصدر خطر على الحريات الدينية.

ب- الصراع الشيعي السني على طريق الحج:

بالنّظر إلى جوهر الخطر في التّعصب؛ فكل طائفة في طريق الحج تشجع على الصراع المذهبي لأغراض سياسية وهي السيطرة، لذا فإنّ الطائفة الباطنية من أخطر المذاهب على الصعيد الخارجي المرتبط بالمسالك؛ وعلى سبيل الذكر فقد بطل الحج في أيام بني عبيد في سنة(317هـ/ 929م)، ويعود السبب إلى: « أخذ الحجر الأسود وذلك

أنّ أبا طاهر سليمان بن الحسن القرمطي دخل مكة حرسها الله تعالى يوم التّروية فقتل الحجاج قتلا ذريعا ورمى القتلى في زمزم، وأخذ الحجر الأسود من الكعبة وقلع بابها وبقي الحجر عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً، ثم ردوه لخمس خلون من ذي القعدة سنة 339هـ/ 950م»(ابن حماد الصنهاجي، (د.ت):51).

وبسبب الصراع السني الشيعي فضل المغاربة عدم القيام بمناسك الحج حتى يتجنبوا المرور بمصر، لأنّ الجيوش توقف كل من وقع بيده منهم بعد أن أعجزه اجتذابهم إلى المذهب الشّيعي(ابن الأثير، علي، 2006: ج9، 84) ، وذكر ابن الأثير في حوادث سنة (499هـ/ 1105م)« أنّ المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر والد الأفضل أراد إصلاحهم فلم يميلوا إليه ولا قاربوه فأمر بقتل من ظفر به منهم، فلما ولي ابنه الأفضل أحسن إليهم »(ابن الأثير، علي، 2006: ج9، 84/ ابن جبير أحمد، (د.ت):54). لقد كان بدر الجمالي شيعيا على مذهب الدولة الفاطمية، وأظهر عدم تساهله مع الحجاج إلى غاية وصوله ابنه الأفضل الذي أظهر تسامحه مع الحجاج.

وفي ظل التعددية المذهبية، وبحكم الانتماء العقائدي ظهرت الغلبة لهذه الطائفة على الحجاج من أهل السنة، ففي جدة:« أكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء والجبال أشراف علويون: حسنيون وحسينيون وجعفريون»(ابن جبير أحمد، (د.ت):54). وظهر الحقد واجتثاث الطرف الأخر السني، وهذا التمايز شرحه ابن جبير بقوله: « وأكثر الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج ولا يعتقد في أهل الذمة، وقد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها: ينتهبون انتهابا، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة على أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه»(ابن جبير أحمد، (د.ت):53/ التجيبي السبتي، 1975 :297).

وثمة أمر لا يستهان به في ضوء الإنكار لأفعال بعض الاتجاهات المذهبية التي بسطت سيطرتها على بلاد الحجاز وبخاصة بمكة المكرمة، ومن هذه الطوائف التي أنكر أفعالها التجيبي الزيدية، ومن فعلها زيادتهم في الأذان« حي على خير العمل» بعد« حي على الفلاح»؛ فقد علل خروجهم عن الدين بأنّهم « روافض لا يجمعون مع النّاس وإنّما يصلون ظهراً أربعاً ويصلون المغرب عقب فراغ الأئمة من صلاتهم ويتبرؤون من أبي بكر وعمر رضي‌الله عنهما»(ابن جبير أحمد،

(د.ت):78/ التجيبي السبتي، 1975 :299). ولا سبيل إلى التّغير إلا الإنكار بالقلب من أهل مكة وعلمائها (التجيبي السبتي، 1975 :299). وقد عبر ابن جبير عن استنكاره للزيدية بقوله« والله من وراء حسابهم وجزائهم» (ابن جبير أحمد، (د.ت):79). أما التجيبي فعبر بقوله« والله تعالى يرشدهم إلى مذهب أهل السنة والجماعة بمنّه وكرمه» (التجيبي السبتي، 1975: 299).

وساهمت هذه النزاعات بين الطوائف بتحويل الحجاج من المغاربة والأندلسيون طريقهم بالمرور عبر الشام فرارا مما« كانوا يلاقونه من ضيق وعنت من السلطات الفاطمية في الموانئ المصرية»(خضري أحمد: 104)، يجدون المضايقات والتّغريم في طريقهم بتبنين بعكة من قبل الصليبيين كما يؤكده ابن جبير« وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الفرنج عليهم، سببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين؛ رحمه الله، أحد الحصون، فكان لهم في أخذه إن ظهر وإشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه إلى بلادهم»» (ابن جبير أحمد، (د.ت):274).

ويعللون سبب ذلك الصراع:« قال الافرنج: عن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسلمهم ولا نرزاهم شيئا، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أنْ نضع هذه الضريبة عليهم» (ابن جبير أحمد، (د.ت):274).

وكل هذه التّطورات التّاريخية أكسبت الشيعة مهابة وقوة وفرضت نفسها على مسالك الحج، وزادت من تغذية التشنجات المذهبية مع أهل السنة خاصة، وعطلت أمور الحج وسيطرت على مناطق الحجاج، لذا لم يكن للحجاج خيار سوى المغامرة أو تغيير الطريق.

ج- الخلاف المذهبي بين الحجاج المغاربة والقبائل القاطنة على طريق الحج:

إنّ الاعتقاد السائد بالنسبة للخلاف بين الحجاج المغاربة والمذاهب الأخرى لم ينحصر حول السّلطة، بل تعداها إلى القبائل والطوائف التي تقطن على مسالك الحج؛ فقد عملت زواوة (ينظر الشرح رقم4) على تهميش الدور المقدس للحجاج، ويظهر تعصبهم في تجاوز حدود الله في التّعامل المخالف لتعاليم الدّين للحجاج؛ حيث لديهم قصر:« مشهور ببيع من يجتاز به الحجاج وغيرهم للنّصارى، ولم تزل الركوب تحترس إذا مرت به خوفا من أهله وخوفهم على سرقة الرجال، أكثر من خوفهم

من أهله وخوفهم من سرقة الرجال، أكثر من خوفهم على سرقة الرحال.. وكان هذا الفعل من قوم زواوة..» (التجاني، أحمد، 1981: 210).

وهنا تكون مسالك الحجيج بسبب الاختلافات المذهبية محل صراع ديني فيما ورد عند التجاني في رحلته عن قرية زواوة الصغرى: «وأهلها قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم موصوفون بتصميم في دينهم وأمان فيما يودع عندهم مكفرين بمواقعة الذنوب » (التجاني، أحمد، 1981: 207). وليس أدل على رسوخ الخطر على طريق الحج واستمراره، ما وصفه العبدري من تصرفات زواوة وزواغة: « ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزواغة معتقدات شنيعة وأعمال كسراب بقية ومذاهب سوء»(العبدري محمد، 2007: 118). وزاد إلحاق الضّر بالحجاج والعنف المسلط عليهم فإذا « استأمن إليهم حاج لم يرعه إلا تلفيق المعاذير عن إساءة رعي الخنازير لأنّهم يبيعونها بأبخس الثمن»(العبدري محمد، 2007: 118). وبالرغم من التّطاحن والنّزاع المذهبي على طريق الحج وغموض المصير، فقد استجمع الحجاج قواهم لقضاء فريضة الله.

وفي السياق نفسه، كانت هوارة(ينظر الشرح رقم5) الخارجية والتي تقطن مسالك طرابلس تخلق نوعا من الاضطرابات على مستوى

أمن الحجاج، ويتحدث العبدري عن هذا المسلك بقوله: « لا يسلكها إلا مخاطر ولا يعدم من عربانها إيلام خاطر. وقد استولى لديهم الصالح والطالح واتفق في مذاقهم لكفرهم ونفاقهم كل عذب ومالح. اتخذوا أخذ الحاج خلقا ودينا واعتقدوا إهلاكه ملة ودينا...فما يمر بتلك المسالك سالك...إلا انقضوا عليه انقضاض الصقور على البغات..لا يغاث من استغاث»(العبدري محمد، 2007: 129). وأكد ابن سعيد مشقة المرور عبر المسلك لوجود قبائل هوارة بطرابلس بقوله: ويجد منهم الحجاج في تلك الطريقة الشاق معونة» (ابن سعيد، علي، 1970 :146).

والحذر نفسه يصدق على قرية الزارات التي كان أهلها على « مذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم، وهذا المذهب الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس»(التجاني، أحمد، 1981: 119). وهم« من بقايا الشّرذمة الضّالة التي قام بها أبو زيد مخلد بن كيداد في إفريقية»(التجاني، أحمد، 1981: 119). وفي مثل هذه الأوضاع تكون الخلافات المذهبية مشكلة عنيفة تؤدي إلى فقدان المال والنفس للحجاج.

وبسبب تعدد مراكز الخوارج على طريق الحج، فإنّها تندفع إلى احتكار المسلك، وسيظهر الدور المتميز للحجاج في أخذ الحذر والحيطة من تحركات العدو الخارجي من خلال بعض الحلول الإصلاحية.

2- الأساليب الإصلاحية بين الترغيب والترهيب:

نظرا لصعوبة الطريق صار الحج إلى الديار المقدسة عبئا كبيرا على الحجاج؛ فتحلوا إلى المدافع عن أمنهم وسلامتهم، إما جماعة أو فرادى، أو على مستوى السلطة.

أ- اللجوء إلى الفتوى وتحدي الحجاج للمخاطر:

في ظل الخلافات المذهبية على طريق الحج واستنزاف الطاقة البشرية من الحجاج، سلك الحجاج المغاربة مسلك القوة، وتحولوا إلى المدافع عن أمنهم وسلامتهم، ويسهرون على تجهيز أنفسهم عدادا وعدة، وكأنّها سرية عسكرية تستعد لمواجهة مخاطر المسالك. وتعدت مشكلة الخلاف إلى إصدار الفتاوى في حق المخالفين وهل يجوز قتالهم، فقد سئل الونشريسي في نوازله التي أجاب عنها أحد الفقهاء بقوله:« فكيف اليوم بما استفاض وشاع من غلبة خوف الطريق من بلد رياح (طرابلس وبرقة) إلى أقصى إفريقية من استضعف من ركوبات الحج فنهب واستبيح مثل الذي كان ووقع في دولة السلطان أبي عنان رحمه الله، ومن

كثر عدده من الحاج وقويت شوكتهم مثل الذي كان في العام الفارط، فقد كانوا اجتمعوا على ما استفاض في آلاف كثيرة تزيد على العشرين ألفا من رجال وخيل، ومع ذلك فقد صاروا لا يسالمهم إلا من ضعف عن قتالهم، ومن قوي من القبائل قاتلهم وقاتلوا وقتلهم وقتلوه ولم يتخلصوا بعد القتل والقتال إلا بغرم عظيم من الأموال، وقع لهم ذلك في غير موضع حتى صعب على جمع منهم الانقلاب والمرجع» (الونشريسي أحمد،(د.ت): ج1، 443). ويبدو أنّ الإلزام بقتال البغاة المتمردين والمتسلطين -من المذاهب الخارجية- على حجاج بيت الله الحرام هي حتمية فرضتها ظروف المسالك، والوقوف على صحة العقيدة الإسلامية في المسالك الحجية من الممارسات التي تعزز الروابط بين المجتمعات المسلمة وغير مسلمة، ورفع الخصومات التي عجز السلطان عن إيجاد الحلول لها.

ولقد أفتى ابن رشد بسقوط الحج في زمانه لما حدث من ضروب الفساد وظهر من عموم الخوف(البرزلي أحمد، 2002:ج1،584-585). ولقد تم إسقاط الحج لتفاقم الانفلات الأمني في الطرق وبخاصة طريق الإسكندرية.

ساهمت مسألة الفتوى من إحداث تغيير نظامي على مستوى المجموعة-الحجاج- من خلال إعداد عسكري للحجاج وتهيئته لمخاطر الطريق. وتأمين أنفسهم للوصول إلى الديار المقدسة سالمين؛ فكانت فتوى وجوب القتال ضرورة لحفظ النّفس والمال.

ب- دور السلطة السياسية في حماية الحجاج المغاربة من الخطر المذهبي المعادي:

ألحقت القبائل الخارجية أضرار كبيرة بسالكي الطرق من الحجاج المغاربة، فتنبهت السلطة الزمنية بضرورة رفع القلق وتذمر الحجاج من سوء الأوضاع الأمنية بسبب الخلاف المذهبي. ومن الدلائل الكاشفة عن تدخل السلطة لقمع القبائل، ما قام به إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب(261-289هـ/ 875-902م) (ينظر الشرح رقم6) في سنة (268هـ/ 899م) مع هوارة لتأمين طريق الحج، والتغلب عليهم بعدما « كانت هوارة قد عاثت في البلاد وقطعت السبل فمضى الحاجب إليهم وعرض عليهم الأمان والرجوع على الطاعة؛. فأبو فقاتلهم وهزمهم. ونهب العسكر ما في منازلهم وأحرقها بالنّار. وعاد الحاجب ثم استأمنت هوارة بعد ذلك»(النويري، شهاب: ج24، 71).

ويضيف ابن الأثير: «أوقع ابراهيم بن أحمد بن الأغلب بأهل الزاب، وكان قد حضر وجوههم عنده فأحسن إليهم ووصلهم وكساهم، وحملهم ثم قتل أكثرهم حتى الأطفال وحملهم على العجل إلى الحفرة فألقاهم فيها»(ابن الأثير، علي، 2006 :ج6،312 / ابن عذاري المراكشي، 2009: ج1، 119). لقد تعامل الأغالبة مع هوارة سلميا بعقد اتفاقيات مع رؤسائها لضمان سلامة طرق القوافل والحجاج، ونتيجة لعنادها كانت القوة قرارا لضمان أمن وكرامة الحجاج.

إذا كانت الطرق البرية غير آمنة مذهبيا، وتعدد المواقف المخزية من حجاج بيت الله الحرام، فإنّ الطريق البّحري كان معرضا للقرصنة من طرف النّصارى وافتكاك الأسرى المسلمين من الحجاج. وبسبب تدخل الدولة الحفصية حافظت على آمان الطرق البّحرية للحجاج، كما سعت من وراء عملها تمتين علاقتها بدولة المماليك بمصر، وتضمنت رسالة السفير الحفصي إلى السلطان الظاهر برقوق(ينظر الشرح7) سنة 792هـ/ 1390م حسب القلقشندي:« أنّه لا يقوم به عنا هنالك، ويؤدي ما يجب منه بين يد كرسي جلالكم، إلا من له ديار الملوك، وقرب الأدب والسلوك، فاقتضى نظرنا الجميل أنْ عينا له شيخ دولتنا المستشار، وعلمها الذي في مهماتها إليه يشار، فلان، وقد كان منذ أعوام

يتطارح علينا في أنْ نخلي للحج سبيله، ونبلغه من ذلك مأموله..فوجهناه.. وحملنا من أمانة الحب ما يلقي إليكم، ومن حديث الشوق ما يقص أخباركم».(القلقشندي أحمد، 1922:ج8،83).

كما تضمنت الرسالة أخبار غزو السلطان الحفصي للجزر القريبة من تونس، وكانت مركزا من مراكز القراصنة النّصرانية الموجهة ضد الأساطيل التّجارية والموانئ الإسلامية، وكان النّصارى يأسرون التجار والمسافرين من الحجاج المسلمين، فكانت الحملة الحفصية على الجزيرة لردع القراصنة الذين كان معظمهم من الجنويين(القلقشندي أحمد، 1922:ج8،80-84).

ولقد حارب الحفصيون القراصنة في جزر صقلية ومالطة فيما وضحته الرسالة: «وذلك أنّ من حين صدر من عدو الملّة في جزيرة ما صدر، حسب ما جره محتوم القدر، ولم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماة، ونطرق طروق الغارة الشعواء بلاده وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت به يداه، إلى أنْ ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرفوا عاقب مكرهم»(القلقشندي احمد، 1922:ج8،84).

وتسرد في الرسالة خبر غزو جزيرة غودش المالطية التي اتخذها القراصنة معقلا لسلب المسلمين الحجاج في البحر، إذ جاء فيها:

«وكانت جزائرهم المعترضة شجى في حلوق الخطار، ومتشجمي الأخطار، وركاب البحر من الحجاج والتجار، جزيرة غودش وبها أعداء الله جم كثير، وجمع كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غرباناً... وشحناها عدداً وعدداً.. فلما نزلوا بساحتها..بهت الذي كفر.. » (القلقشندي أحمد، 1922:ج80،8-84).

وتدل هذه الرسالة على دور الحفصيين في دفع الخطر وصد الغارات على الطرق البحرية، وبداية لتوسيع نفوذها بحرا، واستئصال شأفة المتمردين النّصارى على الحجاج هو مرحلة جديدة لفتح الطريق وتأمينه لحجاج بيت الله الحرام المسافرين بحرا.

خاتمة:

تقودنا الدراسة إلى القول بأنّ وضع الحجاج عبر المسالك غالبا ما يكون مضطربا يخضع لسياسة الإقصاء الديني، لاسيما في المناطق التي ساروا إليها. علما أنّ هذه الطرق بالرغم من الصعوبة الطبيعية فإنّ الحجاج المغاربة يتعرضون للعنف والعدوان والمضايقات المذهبية.

تعرض الحجاج المغاربة في طريقهم لأداء المناسك إلى القتل والنهب والاضطهاد من المخالفين لهم في المذهب. ووجدت النقمة الكبيرة على

الحجاج من الاتجاهات الخارجية من الإباضية، والشيعة الإسماعيلية من جهة، وتدعمها السلطة والقبيلة من جهة أخرى كهوارة وزواغة.

وبما أنّ الركب الحجاجي لديه دعوة توحيدية تتسم بقطع الخلاف والتّناحر؛ ولقدر ترتب عن إصلاح ذات البين الحرص على إزالة العثرات في طريق الحجاج التي تتعرض لمخاطر العداء المذهبي والديني.

وليس هذا فحسب، فقد لقيت الفتوى في مقاتلة المخالفين استحسانا وقبولا كبيرا لدى الحجاج المغاربة، باعتبارها ضرورة لتنظيم الجماعة، وتنادي بسياسة تستمد شرعيتها من الدين الإسلامي لحفظ النّفس والمال.

فضلا عن ذلك، ساهمت السلطة السياسية في حماية مصالح الدولة والحجاج، لأنّ الخطر الموجه على الحجاج يمثل في الأساس اعتداء على الدولة خارجيا، وهي المهمة التي تبنتها عدة دول كالأغالبة والحفصيين لقمع الخطر برار وبحرا، ووضع حد للاستبداد المذهبي عبر مسالك الحج.

وعليه نستنتج أنّ الخلافات المذهبية على طريق الحج بين الحجاج المغاربة وبينهم وبين الطرف المخالف، هي حقيقة ميزها التّعصب المذهبي الذي تظهر مؤشراته وعلاماته بحدة في مواسم الحج. ولكنّها تضع الحجاح في مكانة حماية الدين من منطلق دعوي وأخلاقي.

الشروحات:

1. عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم(171-208 هـ/ 787-823م)، ثاني الأئمة الرستميين بتيهرت، كان عالما فقيها شجاعا، اشتهر بالدهاء السياسي والحزم ويباشر الحروب بنفسه. اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع مثله لزعيم اباضي قبله. (ابن الصغير، 1986 :16/ الزركلي خير الدين، 1980:ج4، 183).

2. يزيد بن فندين: زعيم النكارية في دولة الرستميين من بني يفرن، وهو فرع من زناتة التي ينتمي إليها معظم أهل المغرب الأوسط. ينظر(الشماخي أحمد ،د.ت:144)

3. أبو اليقظان (261-281هـ/ 875-894م): خامس الأئمة الرستميين بتيهرت. وكان عالما ورعا زاهدا تقيا، صنف الكتب والرسائل في الرد على المعتزلة وغيرهم، قضى نحو أربعين سنة في الحكم. (ابن الصغير، 1986: 28/ الباروني، سليمان،2005 :236)

4. زواوة: أكبر بطون البربر، وبطن من بطون كتامة.(الإدريسي، محمد، 2002: 253)

5. هوارة: قبيلة بربرية من البرانس. تقيم هوارة بشكل واسع في الشمال الافريقي. (ابن خلدون عبد الرحمن، : ج7، 204)

6. أبي اسحاق إبراهيم بن أحمد بن الأغلب(261-289هـ/ 875-902م): أمير القيروان، لما توفي أبو الغرانيق محمد بن أحمد بن الأغلب بايع مشايخ وأهل افريقية ووجوهها إبراهيم سنة 261هـ/ 875م، وذلك لحسن سيرته وسياسته (الرقيق القيرواني،1990: 176 / النويري، شهاب: ج24، 71/ ابن عذاري المراكشي، 2009: ج1، 119).

7. الظاهر برقوق : أبو سعيد برقوق بن انص العثماني، نسبة الى مشتريه عثمان بن مسافر، وسمي برقوق لجحوظ في عينيه، هو أول من بدأ حكم المماليك الجراكسة بمصر، توفي عام 801هـ/ 1398م .(الشوكاني محمد(د،ت) :ج1 ،ص162).

المصادر والمراجع:

ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم، (2006م). الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، ج6.

ابن الصغير المالكي،(1986م). أخبار الائمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر، ابراهيم بحاز، دار الغرب، بيروت.

ابن جبير الكناني الأندلسي، رحلة ابن جبير (د.ت). دار الصادر، بيروت.

ابن حماد الصنهاجي(د.ت). عبد الله بن محمد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/ 1406م). العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار العلم للجميع، بيروت (د.ت)،ج 6.

ابن سعيد، أبي الحسن علي بن موسى،(1970م). كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1.

ابن كثير، (1989م). البداية والنهاية، ج16، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، ط1.

الإدريسي، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس،(2002م). نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

الباروني سليمان باشا(2005). الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضي، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع.

البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي، (2002م). جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتيين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، ج1.

التجاني، أبو عبد الله بن محمد بن أحمد(1981م). رحلة التجانيي، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس.

التجيبي السبتي، القاسم بن يوسف،(1975م). مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس.

تؤدة بنت محمد علي الشريف(1419هـ-1999م). العلاقات بين الحجاز وبلاد المغرب في العصر العباسي الأول، اشراف صابر بن محمد دياب، عبد الله بن عقيل عنقاوي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة الملك عبد العزيز.

خضري أحمد(د.ت). علاقات الفاطميين بدول المغرب، مكتبة مدبولي، القاهرة.

الرقيق القيرواني، أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم،(1990م). تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلي الزيدان، عز الدين عمرو موسى، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1.

الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد (2009). السير، تحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، ج1.

الشوكاني محمد بن علي(د.ت). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، ج1.

العبدري، محمد العبدري اليلنسي،(2007م). الرحلة العبدرية، تقديم سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ط1.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد (1922م). صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب، القاهرة، د/ ط ، ج8.

المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي،(1994م). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان،ج1.

مخلوف قاسم(2003م). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

المقريزي، (1998م). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق زينهم زمديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ج2.

النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهـاب(د.ت). نهايـة الغـرب في فنون الادب، تحقيق عبد المجيد تـرحيني ، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، ج24 .

الونشـريسي أحمد بن يحي(1981م). المعيـار المعرب والجامع المغرب عن فتـاوى علماء إفريقية والأنـدلس والمغرب، تحت إشراف محمد الحجـي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.